

## نقاط مضيئة في تاريخ التنمية (١) دراسة : عبد المجيد راشد

حظيت التنمية باهتمام كثير من المفكرين و الفقهاء المسلمين ، الذين اظهروا انها ليست عملية انتاج فحسب ، و إنما هي عملية كفاية في الانتاج مصحوبة بعدالة في التوزيع ، و أنها ليست عملية مادية فقط ، و إنما هي عملية انسانية تهدف الى تنمية الفرد و تقدمه في المجالين المادى و الروحى . ان النصوص الشرعية التى تقرر هذه الحقائق و ما يتعلق بها كثيرة نذكر منها :

" هو أنشأكم فى الأرض و استعمركم فيها " <sup>١</sup> أى جعلكم سكانها و عمارها .

" و لقد مكناكم فى الأرض و جعلنا لكم فيها معاش قليلا ما تشكرون " <sup>٢</sup>

" هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها و كلوا من رزقه و إليه النشور " <sup>٣</sup>

" و أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه " <sup>٤</sup>

و ينظر الاسلام الى الحياة الانسانية على اساس ان المجتمع يتكون من افراد لهم صفاتهم الفردية ، و علاقاتهم الاجتماعية ، فكانت عنايته بكل من المصالح الفردية و الجماعية ، وفق نسق خاص يجمع بينهما و يحرص عليهما ما دام ذلك ممكنا ، إلا إذا تعارضتا فتقدم المصالح الجماعية أو العامة لأنها أولى بالإهتمام و الرعاية .

و المصالح سواء كانت فردية ام جماعية تتحقق بإشباع الحاجات و تلبية المتطلبات اللازمة لإقامة مجتمع انسانى راشد تتمثل فيه عمارة الأرض .

و هذه الحاجات على نوعين :-

١ - هود ٦١  
٢ - الأعراف ١٠  
٣ - الملك ١٥  
٤ - الحديد ٧

١- حاجات فردية : هى التى تضمن للإنسان حياته و كرامته و قدرته على الاستمرار فى عمارة الأرض و هى الطعام و الشراب و اللباس و السكن و الأمن .

٢- حاجات عامة : هى التى تسهم فى قيام مجتمع قوى من جميع النواحي الصحية و الثقافية و التربوية و الاجتماعية و الاقتصادية و العسكرية ليؤدى دوره فى هذه الحياة .<sup>٥</sup>

و الاسلام إذ يعترف بالحاجات الفردية و العامة و يضع من القواعد ما يحقق إشباعها ، فإنه لا يترك هذه الحاجات دون توجيه و تهذيب يكفل خير الانسان و تقدم المجتمع ، بحيث تتم العملية وفق معايير اخلاقية انسانية تبعدها عن كل مظاهر الجشع و التكالب المادى ، و تصونها من مظاهر التبذير و الإسراف ، و يتحقق ذلك بتصنيف هذه المصالح و ترتيبها و تحديد أولوياتها ، و رسم الخطط التنموية عن فهم و وعى لمتطلبات الفرد و المجتمع .<sup>٦</sup>

و تطبيقا لذلك فقد جاء فى كتاب على بن أبى طالب رضى الله عنه الى واليه فى مصر قوله :

" و ليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى إستجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة و من طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد و أهلها العباد "<sup>٧</sup>

و تجسيدا لهذا الفهم ، فقد وصف أحدهم حالة الرعية فى أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فقال :

" تركت المدينة و الظالم فيها مقهور ، و المظلوم منصور ، و الغنى موفور ، و العائل مجبور ."

و كتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد ولاته يقول :

" و انظر الخراب فإن أطاق شيئا فخذ منه ما أطاق ، و أصلحه حتى يعمر " .

<sup>٥</sup> - د. إبراهيم العسل : التنمية فى الاسلام : مفاهيم ، مناهج تطبيقات ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٦ ، ص ٦٥

<sup>٦</sup> - السابق ، نفس الصفحة

<sup>٧</sup> - الشريف محمد الرضى : نهج البلاغة للإمام على بن أبى طالب ، شرح الشيخ محمد عبده ، و تحقيق عبد العزيز سيد الأهل ، مكتبة الأندلس ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٤ ، ص ١٨

و يقول عمر بن عبد العزيز : " لا بد للمرء من مسكن يسكنه ، و خادم يكفيه مهنته ، و فرس يجاهد عليه عدوه ، و من أن يكون له الأثاث في بيته " <sup>8</sup>

لقد قرر الفقهاء المسلمون أن سد حاجات الناس هي من فروض الكفاية التي يجب على مجموع المسلمين القيام بها . فإذا قام بها بعضهم سقطت عن الباقي ، و إلا فيأثم جميع القادرين على آدائها . و من زاوية أخرى ، فإن شرط إقامة الحد أو تطبيق القوانين على الناس في المفهوم الإسلامي ، هو تحقيق الكفاية لهم ، فإن لم توجد تتوقف الحدود ، و تتعطل القوانين حتى تكتفى الحاجات و ذلك بإيجاد الإستثمارات و تأمين العمل .

و تجسيدا لذلك المفهوم فقد سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحد ولاته : " ماذا تفعل لو جاءك سارق ، فقال الوالى : أقطع يده . قال عمر : و إذن فإن جاءنى منهم جائع أو متعطل ، فسوف أقطع يدك . إن الله سبحانه و تعالى استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم ، و نستر عورتهم ، و نوفر لهم حرفتهم ، فإذا أعطيناهم هذه النعم تقاضيناهم شكرها ، يا هذا !!! إن الله خلق الأيدي لتعمل ، فإن لم تجد فى الطاعة عملا إلتمست فى المعصية أعمالا ، فأشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية " <sup>9</sup>

و إذا كان مفهوم التنمية الإقتصادية يعنى - ضمن ما يعنيه - توفير الفائض و استخدامه فى زيادة قدرات المجتمع الإنتاجية ، بعيدا عن الترف و التبذير ، فإن الشريعة الإسلامية نبهت الى عدم الإسراف ، و دعت إلى صرف الفضل أو ما زاد عن الحاجة أو الكفاية فى مصالح المجتمع و تنميته .. " و آت ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل و لا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين و كان الشيطان لربه كفورا " <sup>10</sup>

و يقول الرسول صلى الله عليه و سلم :

" ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له " <sup>11</sup>

8 - أبو عبيد ، القاسم بن سلام ، كتاب الأموال ، تحقيق محمد هراس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٦ ، ص ٥٥٢

9 - د. إبراهيم العسل ، مرجع سابق ذكره ، ص ٦٦ / ٦٧

10 - الإسراء ١٧

11 - رواه مسلم و أبو داود و أحمد بن حنبل

و إذا لم يكن للمحتاج قريب غنى تجب نفقته فإن إشباع حاجاته تقوم بها الدولة . يقول الرسول صلى الله عليه و سلم : " من ترك مالا فلورثته ، و من ترك كلاً فإلينا " .<sup>١٢</sup>

و يقول أيضا : " أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى المؤمنين و ترك ديناً فعلى قضاؤه و من ترك مالا فلورثته " .<sup>١٣</sup>  
لقد شملت عدالة الإسلام تأمين الكفاية للمسلمين و لغير المسلمين من أهل الذمة و ممن يقيم فى دار الهجرة و فى دار الإسلام . و تطبيقاً لذلك فقد كتب عمر بن عبد العزيز الى عامله على البصرة : " و انظر من قبلك من أهل الذمة ، قد كبرت سنه ، و ضعفت قوته ، و ولت عنه المكاسب ، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه .. و ذلك أنه بلغنى أن أمير المؤمنين عمر مرّ بشيخ من أهل الذمة يسأل على ابواب الناس فقال ك ما انصفناك إن كنا قد اخذنا منك الجزية فى شببيتك و ضيعناك فى كبرك ، قال : ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه " .<sup>١٤</sup>

و جاء فى كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة : أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيا فأفتقر ، و صار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته و عيل من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الهجرة و دار الإسلام " .<sup>١٥</sup>  
و يعتبر الإمام الغزالي أن تلبية حاجات الإنسان و تنمية قدراته هى شرط لإنظام أمور دينه و دنياه ، حيث يقول :

" إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا ... فنظام الدين بالمعرفة و العبادة لا يتوصل إليهما إلا بمعرفة البدن ، و بقاء الحياة ، و سلامة قدر الحاجات من الكسوة و المسكن و الأقوات و الأمن ... فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية .. و إلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقاً بحراسة نفسه من سيوف الظلمة ، و طلب قوته من وجوه الغلبة ، متى يتفرغ للعلم و العمل ، و هما

<sup>12</sup> - رواه البخارى بشرح فتح البارى ج ١١ ، ص ٤٤١ ، و رواه مسلم بشرح النووى ، ج ١١ ، ص ٦١

<sup>13</sup> - رواه البخارى و مسلم بشرح اللؤلؤ المرجان ، ج ٢ ، ص ١٦٠

<sup>14</sup> - أبو عبيد القاسم بن سلام ، مرجع سابق ذكره ، ص ٥٠

<sup>15</sup> - أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم ، كتاب الخراج ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ١ ، ص ١٤٤

وسيلتان إلى سعادة الآخرة؟ فإذن إن نظام الدنيا ، أعنى مقادير الحاجة شرط لنظام الدين " .<sup>١٦</sup>

لقد وضع الإسلام حكام البلاد و فقهاءها على الطريق الصحيح لتحقيق الذات و بلوغ التنمية ، و حفلت كتابات المفكرين و الباحثين الإسلاميين بمؤلفات إقتصادية فى مجال التنمية يبقوا بها الكتاب الغربيين بعدة قرون ، . فهذا القاضى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم المتوفى سنة ١٨٢ هـ فى كتابه " الخراج " ، و هذا يحيى بن آدم القرشى فى كتابه " الخراج " أيضا و هذا الإمام الحافظ أبى الفرج رجب الحنبلى فى كتابه " الاستخرج لأحكام الخراج " وضعوا المبادئ العامة لتنظيم الخراج التى شملت الجباية ، العشور ، و الصدقات ، و الجوالى<sup>١٧</sup> ، و القطائع ، و إحياء الأرض ، و حكم مال الخراج و مصارفه ، و غير ذلك من البحوث التنموية ، . و هذا الفقيه الدلجى فى كتابه " الفلاكة و المفلكون " ، أى الفقر و الفقراء يعرض لقضية الفقر و مشاكله بتفصيل و إحاطة ، و عمق نادر فى مقياس زمانه .<sup>١٨</sup>

16 - أبو حامد الغزالى : الإقتصاد فى الإعتقاد ، القاهرة ، مطبعة حجازى ، دون تاريخ ، ص ١٠٥

17 - جمع جالية و أصلها الجماعة التى تفارق وطنها و تنزل و طنا آخر

18 - د. إبراهيم عسل : مصدر سابق ذكره ، ص ٦٩